

التأنيث في اللغة العربية: وصف وإشكال⁽¹⁾

د كمال السامي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الخامس - أكدال الرباط

مقدمة

نعالج، في هذه الورقة، ظاهرة لغوية جد حساسة لطالما شغلت أذهان النحاة واللغويين منذ قرون مضت، وما زالت لحد اليوم تعج الأدبيات اللسانية، قد يهمها وتحديها، بما أفرزته تصورات متنوعة على اختلافها (انظر فشر (1972)، ورأيت (1974) (Wright)، وفليش (1961، 1968 و 1979) (Fleish)، وغيرهم من المستشرين). فالبعض ربط الموضوع، أثناء معالجته لهاته الظاهرة، بالقياس والسماع (أي بقياس مطرد أو ما اطرد وشاع)، والبعض الآخر بضرفيات التأنيث (أي العلامات الدالة على التأنيث كالناء والألف ب نوعيها، ومنهم من زاد على ذلك).

غير أننا نذهب مذهبآ آخر، تفرضه طبيعة الموضوع الشائكة واختلاف التصور، يتعلق الأمر بمعجمية التأنيث. بمعنى أن التأنيث معجمي غير قياسي يُقدمه المعجم في لوائح ويُتعلّم. فتناوله بالقياس والسماع لا يحل المشكّل على أساس أن المعرفة الموسوعية ليست فيها ضوابط ولا تخضع لقيود أو شروط. أما عن اللواصق الصرفية الدالة على التأنيث كالناء مثلاً، فقول إن اللواصق في

(1) أُلقيت هذه المقالة، في صيغة غير مُعدّلة، خلال الدورة التكوينية، رقم 84، المنعقدة بمراكش، بدعم مادي من مؤسسة كونراد أدناور ستيفتونغ (Konrad-Adenauer-Stiftung) (2007). وأنوّجه بالشكر إلى الحاضرين على ما أفادوني به أثناء النقاش.

الصرف ملتيسة، كما في (1)، وينبغي ألا ننخدع بالصّرفيّة بحكم بُعد دلالتها عن المراد (أي الدلالة على التأنيث)، فضلاً عن أن لاصقة التأنيث قد نجدها بعينها في المذكّر، كما تُبدي الأمثلة (2) مقارنة بـ(3):

- (1) أ) نخل — نخلة [الباء هنا لتمييز الواحد من الجنس]
 - ب) زناديق — زنادقة [الباء هنا بدلاً من ياء التكسير]
 - ج) *ملول — ملولة (خوافة) [الباء هنا لللمبالحة، لا للتأنيث]
 - د) وَعْد — عِدة [الباء هنا عوض عن فاء الكلمة؛ لأن الأصل "وَعْد"]
 - (2) أ) جاءت الجدة راكبة
 - ب) التقطت كرة حمراء
 - ج) ساعدنا امرأة حبلى
 - (3) أ) جالسوا رجلان راوية للشعر
 - ب) مات في يوم ثلاثة
 - ج) شاهدت جمالاً قبّاعيّاً (ضمّنها شديداً)
- وإلى جانب التأنيث المعجمي، نجد نوعاً آخر من التأنيث تزخر به اللغة العربية كمثيلتها الفرنسية، يُدعى بالتأنيث السياقي الذي يبرُز جلياً من خلال الآثار التطابقية التي يُخالِفُها ظهور سمة التأنيث أو غيابها، ونمثّل له بالأمثلة (4)-(6):

- (4) وحدة الشباب دعامة أساسية للتنمية/المحلية
- (5) يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء تحت الصخرة الصماء
- (6) La petite fille blanche, qui met un pyjama à feuilles vertes, dort dans un lit tout blanc

"الفتاة البيضاء الصغيرة، التي ترتدي منامة بأوراق خضراء، تنام على سرير كله أبيض"

إذن، لدراسة ظاهرة التأنيث نحتاج إلى شيء آخر، بل إلى تصوّر **مغاير** أكثر فاعلية ومقبولة للتمييز بين المذكر والمؤنث بعيداً عن كل التباس أو شبهة. سنقدّم، في البداية، صورة عامة لنظام الجنس داخل اللغات عموماً، وفي اللغة العربية، على وجه الخصوص. وكنقطة ثانية، سنتحليل بإيجاز على بعض المحاوّلات التي أقيمت في الأدبيات البنوية والاستشرافية حول طبيعة لواصق التأنيث وإنجذبّتها في الساميّات. كما سنبني في نقطة أخرى، تبعاً للدكتور محمد بلبول (2007)، بعض الملاحظات التي تكشف عن عدم ملاءمة هذه الأوصاف، مبرزاً في نفس الوقت الحاجة إلى جهاز نظري تُؤطر فيه ظاهرة التأنيث، ويسمح بتحديد الوظائف الصرفية والتركيبية والدلالية تحديداً ملائماً لبنية اللغة العربية.

1. تصريف نظام الجنس داخل اللغات: اللغة العربية نموذجاً

فمن موسوعة ويكيبيديا (2007) Wikipedia، تنقسم اللغات إلى صنفين:
 أ)- لغات لها نظام جنس نحوبي (grammatical gender)، إما ثنائي أو ثلاثي (وهي كثيرة جداً) أو ما فوق الثلاثي، ومنها: اللغات السامية، واللغات الهند-أوروبية، واللغات الجermanية، واللغات الطبيعية، ...

ب)- لغات ليس لها نظام جنس نحوبي (ungrammatical gender) بالمرة، وعددتها قليل، مثل⁽²⁾:

. لغات التاييك (Altaic).

. اللغات النمساوية (Austronesian).

. اللغات الصينية-التبتية (Sino-Tibetan).

(2) انظر موسوعة ويكيبيديا الحرة (2007) Wikipedia لمزيد من التفصيل بخصوص هذه اللغات اللاجنسيّة.

اللغات الأورالية (Uralic).

بالنسبة للمجموعة (أ)، وهي ما يهمّنا هنا (أي مجموع اللغات التي لها نظام جنس نحوبي)، فنقسمها بدورها إلى ثلاثة أصناف مصحوبة بأمثلة من بعض اللغات، كما في (1.1)-(3.1) تباعاً. أمّا عن المجموعة (ب)؛ أي مجموع اللغات التي ليس لها نظام جنس نحوبي بالمرة، فنأخّر الحديث عنها للقاء علمي آخر.

1.1: نظام جنس نحوبي ثانوي (مذكر / مؤنث)

تُظهر اللغات، الواردة أسفله، نمطية معينة من حيث تأنيث الكلمة أو تذكيرها؛ فهي (فيما يبدو) لا تخُرج عن نمط ثانوي مذكر / مؤنث تمثّله كل من العربية العيار، والفرنسية، والإنجليزية، كلغات طبيعية، وأيضاً كل اللغات المذكورة في (10):

(7) نمط اللغة العربية

أ) رجل — امرأة

ب) أخ — أخت

ج) حمار — أتان

(8) نمط اللغة الفرنسية

le frère — la soeur (أ)

le docteur — la doctoresse (ب)

le jardinier — la jardinière (ج)

le petit — la petite (د)

(9) نمط اللغة الإنجليزية

actor — actress (أ)

husband —— wife (ب)

ج) it، she، he (ثلاثية النظام بالنسبة للضمائر)

(10) الأكادية، الأرامية، البنغالية، الكتالانية، العبرية، الهندية، الإيرلندية،
الولوشية، الأمازيغية⁽³⁾، ...

١.٢: نظام جنس نحوي ثلاثي (مذكر / مؤنث / محайд)

ترى نمطية هذه اللغات عن السابقة بنمط جديد يسمى "المحايد"⁽⁴⁾، ولا
تميّزه في الغالب إلا الاصقة، كصرفة ملزمة له. ذكر من هذه اللغات، ما هو
وارد في أمثلة الأساق المختلفة في (11)-(14)، على التوالي:

(11) نمط اللغة الإسبانية

أ) este (إش مفرد مذكر)

ب) esta (إش مفرد مؤنث)

ج) esto (إش مفرد محайд)

(12) نمط المحايد في اللغة البرتغالية

todo homem (أ)

"أيُّ رجل"

ب) toda mulher

(3) انظر شاكر سليم (1998) بهذا الخصوص.

(4) يقول محمود فهمي حجازي، ص 145-146، في "علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية"، ما مراده: "في اللغات الجermanية، يوجد إلى جانب المذكر والمؤنث صيغة ثلاثة يطلق عليها (Neutrum)، ويترجم هذا المصطلح بالمحايد، ولا علاقة هنا بين الكلمة كصيغة لغوية وما تدل عليه في واقع الحياة. ومن هذا النوع، في الألمانية، الكلمة (fräulein) ومعناها "آسة"، وكلمة (mädchen) ومعناها "بنت"، وكلمة (häschchen) ومعناها "بيت صغير". فكل هذه الأسماء تصنف في الألمانية من المحايد، وذلك وفق الصيغة اللغوية، لا وفقا لما تدل عليه الكلمة في الواقع الخارجي".

"أية امرأة"

ج) tudo

"أي شيء"

(13) نمط المحايد في اللغة الألمانية

أ) fräulein (آنسة)

ب) mädchen (بنت)

ج) häschen (بيت صغير)

(14) البوسنية، البلغارية، الإيطالية، اليونانية، الألمانية، الترفيجية، الروسية،
الصربيّة، ...

1.3. لغات لها نظام جنس ما فوق ثلاثي:

(ذكر / مؤنث / حي / جامد / نباتي / ...)

قد يحكم هذه اللغات منطق معايير؛ فهي تختلف عن المألوف في الأنماط المختلفة المعروفة، باعتبار عددها القليل الذي قد لا يتجاوز العشرة. وفي هذه اللغات، قد تلفي الجنس تحديداً العديد من المعايير أو السمات التي تفوق الثلاثة، مثل: الذكر، والمؤنث، والمحايد، والحي، والجامد، والنباتي، وغير ذلك. وعليه، نقدم أمثلة لهذه اللغات التي تملك نظام جنس ما فوق ثلاثي، كما يلي:

(15) اللغات البولندية (Polish)، لغة الزاندي (Zandi)، لغة اللّكّندا ولغة التكلوّك (Luganda) ...

عودا إلى اللغات التي يكون نظامها الجنسي ثنائي، نختار اللغة العربية التي يمكن أن نتناوله فيها بحسب النمط أو الطبيعة المقولية للكلمة، على أساس أن الموسوم هو الذي تلحّقه لاصقة التأنيث عموماً (وهي حالة المؤنث)، وغير الموسوم هو ما عَرِيَ منها أو تجرّد عنها في الغالب (وهي حالة الذكر)، كما تبدي ذلك الأمثلة (16)-(33) أسفله.

١.١. الصفة: يظهر نظام الجنس الموسوم فيها ثنائياً.

إذا ما قارنا أمثلة المجموعة الموجودة على اليمين بأمثلة المجموعة الموجودة على اليسار في المثال (16)، فإننا سنخلص إلى أن جنس الصفة الموسوم يَظْهَر فيها دائمًا ثنائياً (مؤنث مقابل ذكر) ولا يخلو من أن يكون؛ إما مقترباً بالباء (كما في (16ـجـ)، أو بالألف المدودة والمقصورة (كما في (16ـبـ) و(16ـجـ) على التوالي). وفي مقابل ذلك تتجدد صفة المذكر من قرائن التأنيث دائمًا (كما في (16ـجـ)) ما عدا إن كانت وظيفتها مقصورة على غير التأنيث، كتوسيع البنية مثلاً، كما في (16ـدـ) و(17ـجــدـ)، أو لإفاده المبالغة وتأكيدها، كما في (17ـجـ) و(17ـبـ) على التوالي، فضلاً عن أن الباء، التي تلحق صيغة فَعُول المؤنثة (كما في (18ـ)، هي للدلالة على المبالغة لا التأنيث.

(16) لحية كثيفة — شعر كثيف

ب) كرة حمراء — لون أحمر

ج) صورة كبرى — إطار أكبر

د) ناقة عطشى — جمل عطشان

(17) ا) رجل راوية للشعر

ب) رجل علامٌ في الأدب

ج) شيخ عِيَاءُ^٢

د) جمل قَبْعَشَى

(18) امرأة ملولة وفروقة

(19) ا) امرأة طالق

ب) امرأة معطير ورجل معطير (كثير العطر)

أما الجنس غير الموسوم بعلامة في الصفة المؤنثة، كما يشير إلى ذلك المثال (19)، فمَرَدُ ذلك إلى السياق. عموماً، إذا كان الفرق واضحًا، بالنسبة للصفات الموسومة باللواصق الجنسية، فهو غير واضح تماماً بالنسبة للأسماء.

١.٢.١. الأسماء: تختلف دلالة الاصقة باختلاف نوع الاسم الذي تدخل عليه.

أ- أسماء الأعلام:

(أ) حمزة

ب) ذكرياء

ج) يحيى، أرطى

د) مروان

هـ) زيد

(أ) فاطمة

ب) زينب، هند

ج) رضوى

د) علياء

هـ) إحسان

بالنسبة لأسماء الأعلام، نجد أن صرفيات التأنيث التي تلحق المؤنث منها (كما في (21)) تلحق أيضا حتى المذكر منها (كما في (20)), فيمنع من الصرف لهذا السبب حسب تصور النحاة العرب القدماء. كما أن وسْم اسم العلم المذكر بلاحقة من لواحق التأنيث لا يعني أن هذه الأخيرة دالة على التأنيث (انظر (20 ج)). وهذا يبدو جليا مقارنة بأسماء الأجناس في الأمثلة (22). إذ التاء لتمييز الواحد من الجنس، وليس القصد من إلصاقها الدلالة على التأنيث.

ب- أسماء الأجناس أو الأنواع: هي لتمييز الواحد من الجنس.

(أ) نخلة — نخل

ب) قمرة — قمر

ج) تفاحة - تفاح

د) شجرة — شجر

(23) أ) «أَعْجَازٌ تُخْلِي حَاوِيَّةً» (التنزيل الحكيم، الحافظة: 7)

ب) «أَعْجَازَ نُخْلٍ مُّقَعِّرٍ» (النَّزِيلُ الْحَكِيمُ، الْقَمَرُ: 20)

أ) نزلت بالبلدة (24)

ب) حطت الطائرة وسط المدينة

وإلى جانب صِرفيات التأنيث، يلعب السياق كذلك دوره في تحديد تأنيث اسم الجنس أو تذكيره. ويظهر هذا بوضوح من خلال آثار التطابق بين الصفة والاسم، كما تبيّن ذلك الآيتان الكريمتان في (23). أما عن التاء في (24)، ف فهي ليست من جنس، بل لتكثير حروف الكلمة حسب الأشموني.

٨- اسم الفرد أو الذات:

وعن تنوع الأمثلة (25) الخاصة باسم الفرد أو الذات، نقول إن نظام الجنس الموسوم فيها ثنائي تماماً، كما هو الحال في الصفة. فالباء والألف غالباً ما تفيدان فيه التأنيث، على أساس التقابل مذكر / مؤنث. إلا أنه في (25ب) قد تبدو التاء ظاهرياً للتأنيث، ولكن الأمر غير ذلك؛ لأنها تؤكّده. كما أن التاء ليست صَنِيْفَةً؛ لأنها لا تنقل المُقولَة من طبقة إلى أخرى. وعليه، تكون التاء في (25ب) لتأكيد التأنيث، لا للتأنيث.

قطة — (25) أ

ب) جمل — ناقه

ج) غَيْلَم — سِلْحَفَة

د) خنفساء — خنفساء

٦- المصادر والجموع وأسماء المرة والآلة:

أما عن التأنيث في المصادر والجموع وأسم المرة، كما توضح ذلك الأمثلة (26)-(29)، فيختلف مضمون لاصقة التأنيث باختلاف طبيعة الاسم أو المُقوله التي تلحّقها. فالالف في "هِجَرَاء" للتوسيع، وقد تلتبس بين الجمّع والمفرد في الدلالة على التأنيث (كما في (28)). والباء في "تنمية" و"ترزكية" هي عوض عن ياء المصدر في الناقص (من زَكَى، تَرْزَكَى)، وفي "عِدَة"، و"إِقَامَة"، و"لغَة" هي عوض عن فاء الكلمة في الأولى التي أصلها "وَعْد"، وعين الكلمة في الثانية التي أصلها "إِقَوَام"، ولام الكلمة في الثالثة التي أصلها "لُغَو". ودون أن ننسى دلالة التاء في الجمّع، كما يشير المثال (29) إلى ذلك، فباء "زنادقة" في (ا) هي بدل من ياء التكسير في "زناديق". وباء "البرابرة" في (ب) هي للدلالة على تعريب الأسماء المُعجمة. أما تاء "الأشاعِة" و"المَنَادِرَة" في (ج)، فهي للدلالة على النّسب وليس للتأنيث.

(ا) ذكرى رائعة

ب) رَغْباء (مصدر رغب)، هِجَرَاء

ج) ترزكية، تنمية

د) هذا قول حق، وهذه قضية حق (استواء مذ/مؤ في المصادر عند الوصف)

(27) (ا) شَغَّلت الغَسَالَة (وهر (1979)

ب) وعَدْتُه عِدَة (وَعْد)

ج) أَقْمَتَه إِقَامَة (إِقَوَام)

د) كَلَّمْتُه بِلُغَة (لُغَو)

(28) (ا) سُكاري (جمع سكران) – حُبَارى، سُمانى (في المفرد)

ب) قُتلى، جُرْحى، صُرْعى

ج) قصباء كثير (لا تدخل التاء على س، والتأنيث سياقي)

(29) أ) حضر الزنادقة

ب) استوطن البرابرة المغرب

ج) رحل الأشاعته والمناذرة عن الوجود

إذن، فباستعمال اللاصقة يمكن أن نصل إلى صرف الأسماء والصفات (مذ/مؤ)، كما يمكن أن نستنق صيغاً أخرى كالمبالغة والتضييق واسم الوحدة وغيرها. فالباء والألف بنوعيها صرفيّتان متعدّدتان الوظيفة أو المضامين (انظر فشر (1972) بهذا الشأن).

2. طبيعة لواصق التأنيث وإنمايتها من منظور استشرافي

لتتأمل الآن الأمثلة الموالية أسفله:

(30) أ) السّعْلُ، السّعْلَاءُ، السّعْلَةُ (الغول، ساحرة الجن)

ب) الدَّهْنَاءُ، الدَّهْنَاءُ (الفَلَاءُ، عشبة حمراء يُدَبِّغُ بها)

ج) الخُنْفَسَةُ، الخُنْفَسَاءُ (حشرة سوداء اللون)

بالنظر إلى (30)، نجد أن اللواحق الثلاث الأولى (الباء والألف بنوعيها) قد ارتبطت فيما بينها، فهي تردد على بنية واحدة في أحيان كثيرة (كما في (أ)), ويُعد دورها كعلامة على التأنيث من أبرز ما تقوم به هذه اللواحق بصرف النظر عن الأدوار الكثيرة الأخرى (الكمبالغة، والتضييق، والإلحاق، والتوصييف،...). ويمكن أن يظهر اثنان منها كما في (ب) و(ج). ويفسر بروكلمان في كتابه "Précis de linguistique sémitique (موجز عن اللسانيات السامية)"، ومن والاه من المستشرقين (أمثال فليش (1961) في كتابه "Traité de philologie arabe" (دراسة فقه اللغة العربية) ورايت (1974) في كتابه "A grammar of the Arabic language (نحو اللغة العربية)")، هذا الارتباط (ارتباط لواصق التأنيث) على مستوى الظهور والأدوار بالتطور التاريخي للغة العربية؛ إذ يرى أن الألف

ليست إلا تطورا للباء في العربية، فقد كانت في غالب الأحيان البديل الأساسي للباء. وقد قدّم هذا التطور في المراحل التالية، كما في (31):

$$[تـ] = [ـهـ] < [ـهـ] < [ـىـ] \quad (31)$$

ومعنى هذا حسب عبد الصبور شاهين: "أن من الممكن أن نقول باحتمال وجود صور منتهية بالباء لكل ما يتضمن بالألف المقصورة والممدودة، وأن هذه الصور قد ماتت بفعل التطور اللغوي، فلم تسجلها المعاجم العربية لشروع الصور الجديدة". ويشير إلى نفس الفكرة ابراهيم السامرائي (1968) في كتابه "النحو العربي نقد وبناء". ويمكن أن يسير تطور الألف الممدودة في نفس الاتجاه، وهو ما ذهب إليه عبد الصبور شاهين، فهي أيضا تُعد تطورا للمقصورة، إذ يؤثر على المستعمل العربي، في نظره، إغفال المقطع المفتوح في نهاية الكلمة بالهمزة. ويمكن تصنيف هذا ضمن كراهات النطق العربي، وهو ما تمثل إلى العربية الغربية، كما تبدي ذلك فعلًا الأمثلة (32):

(أ) حراء — حمره

(ب) صراء — صحراء

فقد زالت العلامتان الثانية والثالثة (الألف بنوعيها) تقريرا من بعض اللهجات العربية الحديثة، وحلّت محلّها هاء التأنيث، وربما يعود السر في زوال هاتين العلامتين وحلول العلامة الأولى محلّهما هو ميل اللغة إلى أن تسير في طريق السهولة والتيسير.

وفي إطار إبراز طبيعة الباء والألف وإنtagيتها في الساميّات، يعتبر كرلوتش (1962) في كتابه "L'apophonie en sémitique" (الأبوفونيا / التناوبات الحركية في الساميّات) أن كلا من الألف المقصورة والألف الممدودة حديثا التكوين بالمقارنة مع الباء؛ إذ يرى هذا المستشرق أن هاتين اللاحقتين تختصان بالاسم والصفة، وأنهما انتزعا في مرحلة من مراحل تطور التطور اللغوي من نهاية الأسماء المقصورة والممدودة الناتجة عن إغلال لتضاف إلى جذوع ثلاثة صحيحة، وذلك لأغراض أبرزها التأنيث. وهذا يسایر ما ذهب إليه برجشتراسر

في كتابه "التطور النحوي" بخصوص تاريخ اللواحق واعتبار لاحقة التاء هي الأصل الأول؛ أي أن التاء مع الفتحة قبلها سامية الأصل. وكثيراً ما كانت الفتحة تُحذف في اللغة السامية الأم، ولم يبق في العربية إلا القليل، كما يظهر ذلك جلياً من خلال الأمثلة (33):

(أ) أخ — اخت

(ب) ثُتَّان

(ج) كِلا — كِلتا

إلا أننا نشير إلى أن الفتحة هي حركة لتفادي الساكن (أي ليست من بنية المُورفيم)، فالباء وحدها هي التي للتأنيث. هذا إضافة إلى أن وضع اللواحق في الصرف ملتبس، فالباء مثلاً هي صرفيّة متعددة الوظيفة أو المضامين. فهـي تارة تدل على التأنيث، وتارة أخرى قد تدل على غيره من مبالغة، أو توسيع، أو إلحاق،... إذن، في المعرفة الموسوعية ليست هناك ضوابط تحـمـلـ التـأـنيـثـ فيـ الـغـلـةـ العـرـبـيـةـ وـغـيرـهـ مـنـ الـلـغـاتـ وـاضـحـاـ فـيـ ذـهـنـ مـتـكـلـمـهـاـ. لـذـكـ، فـتـاـولـ هـاـتـهـ الـظـاهـرـةـ يـتـطـلـبـ تـحـيـصـاـ جـيدـاـ فـيـ الـمـعـطـيـاتـ، بـغـيـةـ إـزـالـةـ الـاضـطـرـابـ الـحاـصـلـ لـدـىـ مـسـتـعـمـلـ الـلـغـةـ أـنـفـسـهـمـ.

3. صيغ التأنيث في اللغة العربية

إلى جانب التأنيث المعجمي والتأنيث السياقي، هناك التأنيث بالصيغة الذي من الممكن جداً أن يكون تأنيثاً صرفيّاً أو معجمياً. لتأمل هذه الأمثلة المناسبة التي يتقابل فيها المذكر بالمؤنث:

(أ) أكبـرـ — كـبـرـ

(ب) أحـمـرـ — حـمـراءـ

(ج) عـرـيـانـ — عـرـيـانـةـ

(د) حـذـرـ — حـذـرـةـ

(هـ) غـضـبـانـ / غـضـبـانـ — غـضـبـىـ / غـضـبـانـةـ

لطالما لاحظ المشغلون بأدبيات الصفات وجود تقابل بين مذكر ومؤنث بعض الصيغ، التي تنتهي بلاحقة من اللواحق الثلاث، كما في (34). غير أن التأنيث بالصيغة قد تغيب عنه اللواحق أحياناً؛ وهو ما نلقيه مع بعض صيغ المبالغة الشهيرة التي قد لا نجد لها تفسيراً، في التقليد النحوي العربي، حيث يستوي فيها المذكر والمؤنث على حد سواء. من أمثلة ذلك، نذكر ما يلي⁽⁵⁾:

- (35) أ) فاعل: ناقة ضامر (نحيفة)، امرأة عانس
 - ب) فعول بمعنى فاعل: امرأة صبور، عمّة حقوود
 - ج) فعالب بمعنى مفعول: فتاة قتيل، امرأة جريح
 - د) مفعول: سيدة مغشّم (جريئة)، امرأة مترجم (شديدة)
 - ه) مفعّال: حارسة مفتاح (كثيرة الفتح)، مؤطرة معلّام (كثيرة العلم)
 - و) مفعّيل: خبيرة منطيق (بلّيغة)، امرأة معطّير (كثيرة العطر)
- بناء على ما سبق، أظن أن البحث في المشاكل المتصلة بالصيغة وتعالق دلالة الصيغة بدلالة صرفيات التأنيث كفيل بتوضيح العديد من مثل هذه الأمور. فخلافاً لما عَمِّمته الأدبيات التقليدية، يمكن إدراج هذه المشاكل، بوجه عام، في الدلالة الصرفية، وبوجه خاص، في الدلالة الجِهْيَة للصرف.

1.3. الدلالة الصرفية والتأنيث الإلصاقية: صيغة فَعُول وفَعَيل

ما يشير دهشتنا في هذا السياق، مع هذه الصيغ، التي قيل في حقها في الأدبيات التقليدية باشتراك المذكر والمؤنث فيها، أنها تقبل بافتراض وجود علاقة بين المنفذية (agentivity) والتأنيث باللاصقة التاء؛ وهي علاقة يمكن أن

(5) بشأن هذه الصيغ، انظر كذلك حسن عباس في "النحو الوافي"، ج 4، ص 546 وما بعدها.

نعتها مبدئياً بأنها تبدو لا متوازية⁽⁶⁾. ونسوق، فيما يلي، الأمثلة (36)-(37) التي ستنكب على دراستها لتوضيح حقيقة هذا الالتواري:

(36) (ا) غلام شكور، صبور، غدور

ب) *جارية شكورة، صبورة، غدورة

ج) جمل ركوب، فتى أكول

د) ناقة ركوبة، فتاة أكولة

(37) (ا) رجل عليم، كريم، نبيل، شديد

ب) امرأة عليمة، كريمة، نبيلة، شديدة

ج) جندي جريح، قتيل، لديع، كسير

د) *مرضة جريحة، قتيلة، لدغة، كسيرة

ا. القراءة المنفذية والتأنيث الحقيقى

تكشف لنا مقارنة الأمثلة في (36) بالأمثلة في (37) على أن تأويل المنفذية (بمعنى الفاعلية) يجعل صيغة فعول، في (36)، تنفر من دخول تاء التأنيث عليها؛ وهو ما يصنفها في عداد الصيغ التي يمكن أن تتمتع بتأنيث لا إلصاقى؛ أي من دون حاجة إلى اللاحقة التاء التي تفيد التأنيث. ومن هنا لامقابوليّة (36ب)، حيث الصيغة فعول لا تتعدى إلى فضليتها اللاقصقة في الدلالة على الفاعل المؤثر. فإذا قرّبنا إلى هذا التصور مفهوم اللزوم والتعدي في الفعل، فإن اللاقصقة التاء ستكون بالضرورة هي مفعول الصيغة فعول. وموازاة مع

(6) ذكر السيوطي، في حق صيغتي فعول وفعيل، ما قد يبيّن لنا الصورة أثناء التحليل. قال: "تحذف التاء من باب صبور وشكور فرقاً بين فعول بمعنى فاعل وفعول بمعنى مفعول، نحو حلوبة وركوبة بمعنى محلوبة ومرکوبة، ومن باب جريح وقطيل فرقاً بين فعيل بمعنى مفعول وبين فعيل بمعنى فاعل، كعليم وسميع". عن "الأشباه والنظائر"، ج 1، ص 319.

لا مقبولية التاء المعتبرة للتأنيث في (36ب)، تقبل صيغة فعلٍ باستحباب، في (37ب)، دخول تاء التأنيث عليها؛ أي أنها تتخذ إجراءً أو سلوكاً معاكساً للصيغة فعلٍ، في سياق القراءة المنفذية، حيث/أمْرَة تكون بمعنى الفاعل المؤنث عاملة.

ب. القراءة اللامنفذية والتأنيث الحقيقى

إلى جانب تأويل المنفذية في صيغتي فعلٍ وفعلٍ، هناك القراءة الثانية المقابلة لها (أعني اللامنفذية). وفي سياق هذا التأويل، نلقي الصيغة فعلٍ قبل باستحباب، في (36د)، دخول تاء التأنيث عليها؛ أي أنها تتخذ إجراءً أو سلوكاً معاكساً للأول لأنها مُؤَوَّلة على القراءة المفعولية، حيث الناقه تكون بمعنى المفعول المؤنث مركوبة. في مقابل هذا، ترفض الصيغة فعلٍ اتصالها بتاء التأنيث، لضعف مقبوليتها في سياق القراءة اللامنفذية، خلافاً للصيغة فعلٍ؛ وهو ما يعني لحن البنى الواردة في (37د) لأن المقصود القراءة "مُرْضَة مجروبة/ مقتولة".

ج. استنتاجات

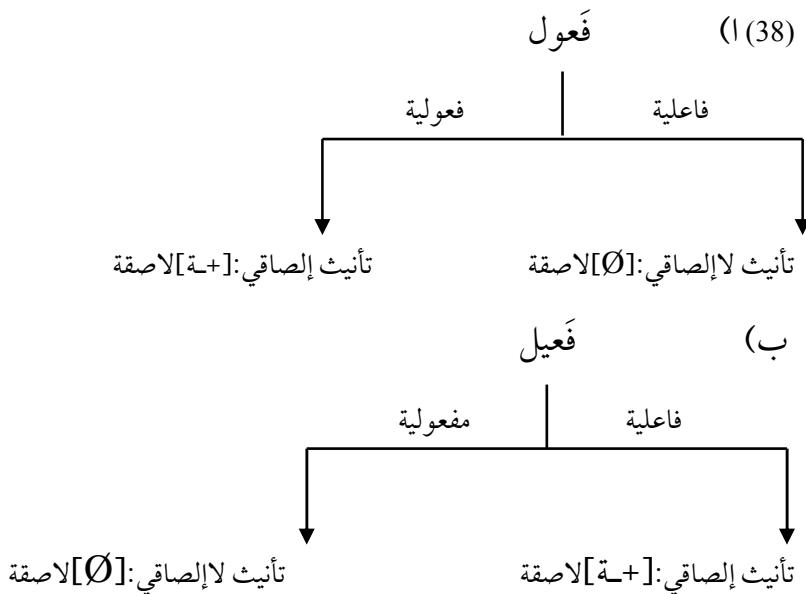
تتصرف فعلٍ وفعلٍ بصورة معاكسة في كل مرة في سياق قراءة معينة؛ وفيما يلي نقدم، بصورة إجمالية، الوضعية الخاصة بتأنيث الصفتين فعلٍ وفعلٍ، حيث تعبر الترسيمتان في (38) عمّا هو مُطْرَد في النسق العربي، ولا تهمنا هنا حالات الشذوذ اللغوي⁽⁷⁾:

(7) استدل المفسرون على أن لفظة *بغية* التي وردت في التنزيل الحكيم، كما في (أ)، هي على وزن فعلٍ لا فعلٍ؛ إذ لو كانت على فعلٍ لتعين دخول تاء التأنيث عليها، فيقال *بغية* في الآيتين لأنها بمعنى فاعل.

(أ). ((قالت أئن يكون لي غلام ولم يمسني بشر ولم أُكِّ بعِيَا)) (مريم: 20).

ب. ((يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سُوءٌ وَمَا كَانَ أَمْكَ بعِيَا)) (مريم: 28).

وفي نفس السياق، يعلق محمد بلبول (2007) قائلاً: "من الأسلم أن تُردد إلى *بغوري*. فلما اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون (في تحليل القدماء)، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأصلية، وقلبت الضمة كسرة لمجاورتها الياء المشددة كراهة الخروج من ضم إلى ياء".



عموماً، توضّح هاتان الترسيمتان (كما أشار إلى ذلك محمد بلبول (2007)) العلاقة المعكوسة لكل من فاعول وفعيل تجاه قابليةهما لحمل تاء التأنيث. لكن هذا الالتواري الظاهر بين الصيغتين، يثوي توافر تام يتعين الكشف عنه؛ إذ يتجلّ في أن لاحقة التأنيث، في كلتا الحالتين، تتحقق متى تمت مراعاة القراءة القانونية (المنفذية أو اللامنفذية)، وأن القراءة الموسومة المتعارضة مع ما تقتضيه البنية الصرافية تُفقد الصيغة الحساسية للجنس، فتصبح أمام بنيات من قبيل : (39)

(39) امرأة صبور، عجوز

ب) طفلة جريح، ذبيح

إذن، بكشف هذه الحقائق، عن صيغتي فاعول وفعيل (وهما من بين الصيغ التي قيل في حقها إنها مشتركة بين المذكر والمؤنث)، يتضح أنها تسلكان سلوكاً طبيعياً تجاه التأنيث الإلصاقي بالثناء داخل النسق العربي. ولتوسيع هذه الفكرة، يرى محمد بلبول (2007) أنه "يجب أن نستحضر أن ما يمحض الفاعلية هو

الكسرة الموجودة في اسم الفاعل. أما المفعولية أو المنفذية الصفر (أي اللاممنفذية)، فتحتتحقق بواسطة الحركة المحورية الضمة التي نصادفها في الفعل المضموم العين. وفي صيغة اسم المفعول هي الضمة نفسها في البناءين السالفين".

2.3. الدلالة الصرفية والتأنيث الإلصاقي: صيغة مفعال/ مفعيل وصيغة

فَعَالٌ(ة)/ فُعْلٌ(ة)

من الصيغ التي تسلك سلوكاً استثنائياً تجاه التأنيث، الصيغة الموجودة في كل من (40) و(41)، التي يصعب تفسيرها بإحدى القراءتين (المنفذية و/أو اللاممنفذية)، كما في التحليل السابق لصيغتي فعال وفعال.

(40) مفعيل: *منطيقه/ منطيق، *معطيره/ معطير

ب) مفعال: *معوانه/ معوان، *مهذاره/ مهذار

(41) فَعَالَة: امرأة/ رجل عَلَّامَة، شيخة/ شيخ نسَابة

ب) فُعلَة: امرأة/ رجل هَمزة، لمزة

فالصيغتان في (40) تفيدان المبالغة، وتدخلان فيما يسمى فيه المذكر والمؤنث؛ إذ لا تقبلان التاء لأسباب خفية. وعن هذه الصيغ، قال محمد ببلوب (2007): "المظنون عندي أنها قد تكون على صلة بالصبغة المرتجلة لهذه الصيغ التي لا تربطها علاقة اشتقاد واصحة بالفعل أو المصدر". أما الصيغ في (41)، فتمثل لاجتماع المذكر أو مشاركته في الصفة المؤنثة لبلوغ الغاية والنتهاية⁽⁸⁾.

(8) نعثر في "الخصائص" لابن جني، ج 2، ص 201، على تفسير واضح لدلالة التأنيث، يقول: "وذلك أن الماء في نحو ذلك لم تلحق تأنيث الموصوف بها هي فيه، وإنما لحقت لإعلام السامع أن هذا الموصوف بها هي فيه قد بلغ الغاية والنتهاية، فجعل تأنيث الصفة أمارةً لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة، وسواء كان ذلك الموصوف بتلك الصفة مذكراً أو مؤنثاً".

خاتمة

حاولنا، بداية، رصد ظاهرة التأنيث في اللغة العربية مقارنة ببعض اللغات الطبيعية (والسامية أيضا). وقد تجلّى ذلك في تصنيف هذه اللغات وتقسيمها إلى أنظمة تصريف أجناس مناسبة: أنظمة ثنائية (مد/مؤ)، فثلاثية (مد/مؤ/مح)، ثم ما فوق ثلاثة. كما أخذنا أيضا في الحديث عن طبيعة لواصق التأنيث وإنماجيتها من منظور استشرافي، فضلاً عن دراسة التأنيث والصيغ الصرفية العربية التي ربطناها بالدلالة لحل بعض مشاكل الإلصاق في صيغ التأنيث.

المراجع العربية والأجنبية

- برجشتاسر، كوتلوف، التطور النحوي للغة العربية، إخراج وتصحيح وتعليق رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة ط.2: 1994.
- بروكلمان، كارل، فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، منشورات جامعة الرياض، الرياض ط 1977.
- بلبول، محمد ومحمد الرحالي: 2007، محاضرات سلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن، *البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث*، تحقيق وتعليق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ط.2: 1996.
- ابن الأنباري، أبو بكر، المذكر والمؤنث، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة ط 2007.
- ابن التستري، سعيد، المذكر والمؤنث، تحقيق وتعليق أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة ط.1: 1983.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية المكتبة العالمية، القاهرة ط.2: 1952.
- ابن يعيش، موفق الدين، *شرح المفصل*، عالم الكتب، بيروت (بدون تاريخ).
- حجازي، محمود فهمي، علم اللغة العربية: مدخل تاريجي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ط. 1992.
- حسن، عباس، *النحو الوافي*، دار المعارف، القاهرة ط.3: 1966.

- رمضان، عبد التواب، التذكير والتأنيث في اللغة، مع تحقيق رسالة أبي موسى الحامض في المذكر والمؤنث، القاهرة ط 1967.
- السامرائي، ابراهيم: 1968، النحو العربي نقد وبناء، دار صادق، بيروت.
- سبيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3: 1988.
- السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).
- شاهين، عبد الصبور: 1966، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- Brockelmann, C.: 1910, *Précis de Linguistique Sémitique*. Traduit de l'Allemand par W. Marçais et Marcel Cohen. Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner.
 - Chaker, S.: 1998, Genre grammatical (masculin/féminin). *Encyclopédie Berbère*, XX. 3042-3045.
 - Fischer, W.: 1972, *Grammatik des Klassischen Arabisch*. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.
 - Fleish, H.: 1961/1979, *Traité de Philologie Arabe*. Vol.1/2. Dar-el Machreq. Beyrouth: Imprimerie Catholique.
 - : 1968, *L'Arabe Classique: Esquisse D'une Structure Linguistique*. Dar-el Machreq. Beyrouth: Imprimerie Catholique.
 - Kurylowicz, J.: 1962, *L'Apophonie en Sémite*. Pologne: Warszwa-Krakow.
 - Wright, W.: 1974, *A Grammar of the Arabic Language*. Cambridge: Cambridge University Press.

